لماذا الكلام عن شكل الأرض؟



عبد العزيز النظري، كتاب وما أدراك ما الأرض؟، صفحة 11 إلى 16.

كثيرًا عندما تناقش الناس في مسألة شكل الأرض، وعندما لا يكون للطرف الآخر حُجَّة يقول لك: وما فائدة كثرة الأخذ والرد والجدال بشأن هذه المسألة؟! فإنها لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر، ولا تقرِّبك من الله، وقد تُبعدك عنه بسبب الجدل.

نعم! قد يتبادر إلى ذهن البعض ذلك، ولكن أقول: ليس ما تقوله صحيحًا بالضرورة؛ فإن دراسة الخلاف في هذه المسألة لها فوائد كثيرة؛ منها: أنه لو لم تكن لها أهميَّة وفائدة لما جعل الله مئات الآيات في كتابه عن السماوات والأرض، وتفاصيلهما. فإن كان الأمر لا يعني لك شيئًا فإنه يعني - بكل تأكيد – الشيء الكثير للمسلمين المهتمّين بتدبُّر كتاب ربّهم.

أستغرب من كلام أولئك الذين يقولون: ما فائدة هذا الموضوع؟ وبغضّ النظر عن كون الأرض كروية أو مسطَّحة أو مربَّعة أو مثلَّثة؛ فإننا نعبد الله، وهذا لا يقدّم شيئًا.

لا بأس سأتنزّل معهم، لكن لماذا لا يقولون الشيء ذاته عن المواضيع الكثيرة التي يتكلم عنها الإنسان، هناك آلاف المواضيع التي يتداولها الناس فيما بينهم، وكثير منها تثير الخلاف، لِمَ لا نراهم يقولون لأولئك: ما الفائدة من النقاش في تلك المسائل؟ وخاصة أن أصحابها من جميع الأطراف والفِرَق يستدلون بآيات من القرآن وأحاديث من السُّنة النبوية ونصوص من الكتب وأقوال بشكل عام؟ لماذا لا يقولون لهم كما يقولون للمتحاورين في مسألة شكل الأرض: "ما الفائدة في معرفة كذا وكذا، المهم أننا نعبد الله الرحمن الرحيم".

حاول أن تُقلِّب القنوات الفضائية على شاشة التلفاز لترى المواضيع التي يتناولها الناس بحثًا ودراسةً وحوارًا وجدلًا، لا يمكنك إحصاء ذلك، لماذا لا تقولون عنها: ما الفائدة؟ وإن لم يكن للموضوع أية أهمية؛ فلماذا

تدخلتم وقلتم: ما أهمية دراسة هذا الموضوع؟ هل تجد عزيزي القارئ كما أجد أن حال مَن ذَكَرْتُ مُثيرٌ للدراسات النفسيَّة والاجتماعيَّة والتعمُّق الفلسفي؟!

دراسة هذه المسألة؛ أعني مسألة شكل الأرض تفتح آفاق جديدة، فإن أول ما تكتشفه أن كلّ ما تعلمته على مدى السنوات الماضية قد لا يكون صحيحًا بالضرورة، وماذا لو اكتشفت أنّك كنت تتلقى الكذبات؛ فإن اكتشفت ذلك وأخذتك حميَّة أنك إنسان، ومن حقّك ألَّا تكون مخدوعًا، وبالتالي قد يدفعك إدراك ما حدث لك للتحرر من داء التقليد والذي هو شرٌ في دين الناس ودنياهم.

واعلم أخي القارئ أن المسلم مُطالَب بالنظر والتأمُّل في آيات الله، لا أن يمرّ عليها مرور الكرام، أو يحملها ويحفظها دون أن يَفْقَهها، وبلا شك أن الآيات القرآنية وفهمها تلعب دورًا رئيسيًّا في صياغة وصبغة إيمان الفرد، وتجعله في قالب يكوّن فيه نط حياته.

ومن أهمية دراسة مسألة شكل الأرض أن المسلم يجد في كتاب ربه الذي يؤمن به آيا في ظاهرها تدل على أن الأرض مسطَّحة ومن ناحية أخرى تبثّ المجتمعات العلمية عبر القنوات الإعلاميَّة ليلًا ونهارًا بأن الأرض كروية. ما حال المسلم حينها؟ إما أنه يفقد الثقة بكتاب ربه، وإما أن يؤمن بها جميعًا من دون أن يفقه لوازم آيات ربه ولوازم مخرجات العلم الحديث، أي: باختصار لم يفهم أيًّا منهما، أو يُشكِّك في النظريات العلمية ويبحث. فإن هو بحَث واكتشف أنَّ كون الأرض كروية عبارة عن نظرية لا تَعْدُو ذلك، ما الذي سيحدث حينها؟ سيزداد إيمان المؤمن بكتاب ربه والآيات الساطعة التي فيها بشأن شكل الأرض، وسيزداد الاعتبار لجميع الآثار النبوية التي كانت تثبت أن الأرض مسطَّحة وستكون له نظرة جديدة للمكان الذي يعيش فيه ومنظور كامل عن شكل الوجود الذي فيه قصة البشرية. ولما يكتشف أن القرآن والتوراة متفقتان في مسألة شكل الأرض فسيزداد إيمانًا بالرسل والكتب، وما إلى ذلك.

وكذلك أهل الكتاب اليهود والنصارى، فإن مَن درس المسألة واطلع على هذه المسائل، وتبين له خطأ القول بكروية الأرض، ثم وجد في الكتاب المقدَّس سواء العهد القديم والعهد الجديد أن الأرض مسطَّحة فإنه سيرد الاعتبار إلى كتابه المقدّس وسيستهدي به. ولما يتعمّق في البحث ويبحث في الأديان الأخرى، ويكتشف أن القرآن كذلك في ظاهر آياته يدل على أن الأرض مسطَّحة؛ فإن فرصة انحياز اليهودي أو النصراني اتباعًا لا تقليدًا إلى الإيمان بالله، واعتناق دين الإسلام الواسع؛ أكبر بكثير من لو أنّه لم يبحث مسألة شكل الأرض، والأمر لله من قبلُ ومن بعدُ.

وأما الكافر بالله أو الملحد الذي لا يؤمن بوجود إله بالتأكيد ستترك دراسة هذه المسألة عليه أثرًا؛ فإن كثيرًا من الذين لا يؤمنون بوجود الإله يؤمنون بمخرجات العلم الحديث، من مثل أن هذا الكون جاء صدفة، بسبب انفجار عظيم، من ثَم تمدَّد الكون ونشأ عنه ما نشأ من المجرات والنجوم والكواكب والشموس حتى الأرض، وبعدها جاءت الحياة، ثم يعيش عليها لا تعدو أن تكون كذرة في وسط هذه المجرة، كخاتم مُلقى في الصحراء، وهذه المجرة – أقصد مجرة درب التبّانة – بذاتها لا تعدو أن تكون كذرة هي الأخرى مقارنة بما في هذا الكون.

وهذا النظام العظيم الذي في هذا الكون عبارة عن صدفة بسبب انفجار غير واعٍ حدث في الكون، وهكذا. ولكن عندما يُصدم هذا الملحد ويكتشف أن أكثر ما قيل له غير صحيح له غير صحيح، وأنه يعيش في مكان كالبيت، فيه أرضية يفترشها وسماء تُظلّه كسقف البيت، وأنه محاط في هذا البيت بجدران لا يمكن اختراقها، وليس فيها أبواب يخرج منها إلا بعد أن يموت؛ فقد يتساءل ويقول من أوجدني في هذا البيت؟ ولماذا جعلني فيه؟ وماذا يريد مني؟ ومثل هذه الأسئلة عزيزي القارئ تُحْدِث فارقًا عظيمًا في الأنفس لبشرية، فعَلَت مفعولها قبل آلاف السنين، وهي لم تفقد مفعولها حتى اليوم، والحمد لله رب العالمين.

بعض الدعاة والوعاظ اليوم إن سألتهم هل الأرض كروية أم مسطحة في القرآن؟ غضبوا من سؤالك، ولعت أصواتهم، وكأنك سببتهم! لماذا الغضب أيها المشايخ؟ اعتبروا السائل طلب فتوى، هل تعاملون المستفتين بهذا الغضب حتى لو كانت أسئلتهم تبدو غريبة؟! لا تفعلون ذلك! فلماذا تغضبون عندما يسألكم المسلم المحتار سؤالًا بريئًا، هل الأرض كروية أم هي مسطحة؟ وكذلك الحال مع المفكرين والمثقفين، تثور ثائرتهم بمجرد سؤالك يبدؤون بطعنك بكلماتهم المُتهجّمة، ألا يدل ما ذكرت على إيمان عميق متعمّق في قلوبهم، وأن هناك حبًا غريبًا لما توصّل إليه العلم الحديث في مسألة شكل الأرض، هل غضبهم سببه الخوف على زعزعة ما آمنوا به أو أن حال البعض منهم صار كحال من قال الله فيهم: (وأُشرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجل) [البقرة: 93].

أيها الناس، المسألة لا داعي أن تثير الغضب.

وأيضًا أقول لأولئك المسالمين المحسنين الظنّ بالناس – وفيهم خير كثير والحمد لله -، عندما يبحث بعض المسلمين مسألة شكل الأرض، ويكتشف أن هناك أخطاء كثيرة عند العلماء اليوم؛ فإن هالة تقديس العلماء ستختفي وسيكتشفون أن العلماء مثل غيرهم من الناس، يُصيبون ويُخطؤون، وبالتالي يسهل عليهم عدم الاتفاق مع جميع ما يقولونه. وكذلك سيكتشفون أن هناك أطرافًا كثيرة تُمرّر الكذب والخطأ عبر مئات السنين؛ إما تقليدًا وإما قصدًا، فإنهم لما يكتشفون أنهم فعلوا ذلك تقليدًا فسيكرهون التقليد وإن هم اكتشفوا

أنّهم خُدعوا عمدًا عبر الوسائل الإعلاميَّة فسيكتشفون أن هذا العالم الذي هم يعيشون فيه مليء بالكذب، فيأخذون حذرهم كي لا يكونوا ضحية أكاذيبهم، وبالتالي يقومون بتوعية الناس بدءًا من عوائلهم إلى الناس أجمعين.

لو أنّك تفكّرت في كمّ الملايين التي صُرِفت من أجل نشر فكرة أن الأرض كروية؟!، وكمّ العلماء الذين بُهتوا ودُمِّروا نفسيًّا فقط لمخالفة المنظور الكروي؟! كم من البشر كان من حقّهم أن يُقال لهم الحق والصدق كُذِّبوا وخُدِعوا بسبب التقليد في مسألة كروية الأرض، ألا تكفي كل هذه الخسائر للبشرية؟! ألا يستدعي ذلك أن نقف وقفة وندرس مسألة شكل الأرض من البداية؟! أهمية دراسة هذا الموضوع لها أهمية كبيرة على عدة مستويات.

أخيرًا أقولها باختصار: إن أهمية دراسة هذه المسألة ببساطة أننا سنعرف الحق من الباطل، الصواب من الخطأ، لو لم يكن لهذه الأمور أية أهمية لما وصل الإنسان إلى ما هو عليه، (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) [الرعد: 16].